



استخلصت من الانقلاب العسكري في مصر -كما بينت في المقالة الأخيرة- فائتين كبيرتين كانت إحداهما: "حكم العسكر خط أحمر"، قلت فيها إن على السوريين والعرب والمسلمين جميعاً أن يرفضوا حكم العسكر، لأن الجيوش مهمتها حماية الأوطان لا حكم الأوطان ولأن القوة تقود إلى الاستبداد والطغيان.

فسألني إخوة كرام: هل تصحّ هذه القاعدة أيضاً في حالة الجيش الحر والجماعات المقاتلة في سوريا؟

سبحان الله! لماذا لا تصحّ؟ هل نضع قاعدة لنا وقاعدة لغيرنا؟

هذه القاعدة المهمة صالحة لكل الأمم وفي جميع الأزمنة. وهي ليست للانتهاص من العسكر، فإن الأمم الحية الحرة تعتبر جيوشها من أهم المؤسسات التي تملّكتها وتنتظر إليها بتقدير واحترام، وهذا هو موقفنا من المجاهدين الذين يقاتلون اليوم في سوريا ويقدمون أنفسهم في سبيل الله والحق والمستضعفين من الرجال والنساء واللدان.

فنحن إذن لا نقرّ قاعدة للانتهاص من العسكر ولا من المجاهدين، بل هي قاعدة لحفظ مصلحة الأمة والبلاد.

لقد قلت في مقالتي الماضية إن أمتنا الإسلامية عانت من الحكم العسكري في تاريخها الطويل ما لا يُحصى من الكوارث والطالمات، وأستطيع أن أفصّل هذه الجملة الصغيرة في مئات الصفحات.

إن كل دارس للتاريخ يعلم أن ضعف الأمة الإسلامية وانهيارها كان متراافقاً دائماً مع تسلط الجيش وقادته العسكري على الدولة وتدخلهم في الحكم، من أيام العباسيين إلى أيام العثمانيين، والسبب مفهوم:

لأن حكم العسكر استبدادي بطبيعته، حتى لو تلبّس بلباس الدين، والاستبداد يقتل الكرامة ويحول الإنسان الحر إلى عبد خانع ذليل، فمن أين يستطيع العبيد أن يقاتلا أعداءهم قتال الأحرار؟ هذه الفكرة المختصرة تختزل مجلدات من الدراسات الاجتماعية والسياسية والعسكرية التي تبيّن أسباب الانهيار السريع للدول ذات الأنظمة العسكرية والشمولية، وتعلّل عدم قدرتها على الصمود في الحروب.

* * *

سوف يأتي يوم (قريب بإذن الله) يسقط فيه نظام الاحتلال في سوريا وينهار جيشه وتتفكك أجهزته الأمنية المجرمة، فماذا سيصنع مئة ألف من المجاهدين الذين حملوا السلاح وقاتلوا النظام البائد؟ أين موقعهم من النظام الجديد؟ هل سيكون لهم دور في حكم البلاد؟

لا تؤخروا الجواب عن هذه الأسئلة ليوم السقوط بل أجيروا عنها منذ اليوم.

أنا سأجيب:

لا يستوي من أنفق من قبل السقوط وقاتل ومن قعد بلا إنفاق ولا قتال. وإنفاق ليس إنفاقاً مال فقط، بل هو إنفاق كل جهد مهما كان نوعه، في الثورة المدنية والعمل الإغاثي والطبي والإعلامي وسائل أنواع العمل الثوري، فكل من اجتهد وجاهد له سابقة لا ينكرها إلا جاحد، وهؤلاء أولى من غيرهم بالمشاركة في صياغة مستقبل سوريا كما شاركوا في صياغة حاضرها، ولكن بشرط مهم: أن تكون المشاركة من خلال المؤسسات المدنية وليس من خلال الكيانات العسكرية.

إن القوة إذا دخلت في السلطة استأثرت بها وهيمنت عليها إذا كانت واحدة، وتسببت في التنافس الشرس عليها والاقتتال دونها إذا كانت متعددة، فهي في كل الأحوال مفسدة مطلقة، وهي بوابة الاستبداد والطغيان، فلم يحصل يوماً أن عاش الاستبداد بلا قوة، ولم يحصل أن سادت القوة (كانت لها السلطة والسيادة) إلا وقادت إلى الاستبداد.

إن اجتماع السلطة والقوة (أي القوة العسكرية) في يد طرف واحد ببابُ شر عظيم لم تسلم منه أمة في كل العصور، وما اجتمعا في يد فرد إلا طفى وبغي، ما خلا الأنبياء وصفوة الخلق الذين اجتمعوا لهم السيادة والقوة فصلحوا وأصلحوا الدنيا، كداود وسلامان ومحمد عليهم صلوات الله، والراشدين وقلة من حكام المسلمين في تاريخنا الطويل كله، وهؤلاء استثناء للقاعدة لا يُفاس عليهم ولا يؤمنون وضع القوة في أيدي غيرهم من الحكام.

القاعدة الكبرى التي أرجو أن يتتفق عليها الجميع هي:

"إن القوة المادية لا تصنع الحق، ولكنها تحمي الحق". هذه القاعدة لي إليها عودة في كتابات سأنشرها قريباً - إن وفقني الله - تحت عنوان "تأملات في فلسفة القوة"، فلن أوسع فيها اليوم، لكنني أؤكد معناها فقط: إن القوة عماء والحق مصر، فإذا قادت القوة الحق ضلت به الطريق وضاع الجميع، وإذا قاد الحق القوة كان هادياً لها وكانت حارسة له وسلم الجميع. فمن شاء من أهل السابقة والجهاد أن يشارك في قيادة البلاد بعد التحرير والاستقلال فإن الميدان مفتوح له، فليرشح نفسه لما يرى أنه يصلح له من مناصب وأعمال، وليراهن كل واحد على إخلاصه وصدقه وعلى ما قدمه في هذه الأيام الفاصلة، فإن الله لا ينسىالمعروف والناس لا ينسون السابقة، وهم يملكون بصيرة ويستطيعون التمييز بين العاملين والخاملين وبين الصادقين والكافرين، فاعتمد - يا أيها المجاهد ويا عبد الله - على ذلك لا على قوة السلاح. من أجل نفسك ومن أجل أولادك وببلادك لا تخلط القوة بالسلطة، فإما أن تكون مشاركاً في السلطة أو تكون حارساً للحق مانعاً من التجاوز والطغيان.

* * *

بقيت كلمة أخيرة أوجهها إلى إخواني في كل الجماعات المقاتلة، ولا سيما الكتائب والجبهات الإسلامية:

نريد منكم عهداً ووعداً أن تتبنيوا منهاجاً واضحاً صريحاً يمنحكما حق في اختيار حكامهم بلا فرض ولا استبداد من أي طرف مهما تكون القوة التي يملكونها، فلا تكون الإمامة في الأمة إلا بالوكالة، أي بتوكيل مجموع الأمة لحكامها على المنهج الذي جرى عليه خلاؤها الراشدون، وأن تبرئوا جميعاً أمامنا وأمام الله من منهج "ولادة التغلب"، فإنه منهج فاسد في أصله الشرعي، وما أجازه الفقهاء إلا من باب دفع أعظم الشررين، فهو عندهم كالنكاح الفاسد الذي لم يستكمل شروطه - من شهود وصدقـ. فلو أدركوه قبل الدخول فسخوه، ولو لم يدركوه إلا بعده أحضوه من باب القبول بأهون الضررين.

إن في اعتماد هذا المنهج في سوريا فتنـة كبيرة وضرراً أعظم من كل ضرر، فإنه أمر لا يتم إلا بالتنافس بين الجماعات المختلفة التي يحمل كل منها منهاجاً غير الذي يحمله غيرها، فلا يتوصل أي منها إلى الانفراد بالسلطة والتغلب على الآخرين إلا بالقتال وإراقة الدماء، وهو ما فرّ منه الفقهاء حينما أجازوا ولادة المتغلب على مضمض؛ قال في "الفتح": "أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب لما في ذلك من حقد الدماء"، وفي "تحفة المحتاج في شرح المنهج": "المتغلب يصير كالحاكم لدفع المفاسد المتولدة بالفتـنـ لمخالفته". فكيف إذا كان التغلب هو السبب في الفتـنـ أصلاً؟ وكيف لو كان التغلب سبباً في إراقة الدماء لا في حقـتها كما ظنـ الحافظ ابن حجر رحـمه اللهـ؟

لقد قبل فقهاء العصور القديمة هذا الأسلوب خروجاً من شـرـ أكبر، وهو الاقتـالـ والفتـنـ كما قالـواـ، ولكنـ التاريخـ يقولـ إنـهمـ أخطـئـواـ خطـأـ فاحشـاـ، بلـ إنـهمـ ارتكـبـواـ خطـيـئةـ فيـ حقـ الأـمـةـ، لأنـ الصـرـاعـ عـلـىـ السـلـطـةـ وـالـنـفـوذـ صـارـ أـمـراـ سـائـغاـ ماـ دـامـتـ مـكـافـأـةـ الـمـنـتـصـرـ الـمـتـغـلـبـ هيـ تـكـرـيـسـ وـلـايـتـهـ عـلـىـ الـأـمـةـ، وـبـسـبـبـ إـجـازـةـ إـمـامـةـ الـمـتـغـلـبـ تحـولـ حـكـمـ فيـ أـكـثـرـ الـعـصـورـ الـإـسـلـامـيـةـ إـلـىـ مـلـكـ جـبـرـيـ. وـفـيـ الـحـقـيـقـةـ فـإـنـ تـارـيـخـنـاـ يـقـولـ إـنـتـاـ عـشـنـاـ لـأـزـمـنـةـ طـوـيـلـةـ تـحـتـ حـكـمـ الـانـقلـابـاتـ الـعـسـكـرـيـةـ، إـلـاـ أنـهـ لـمـ يـسـمـوـهـاـ كـذـلـكـ، وـلـكـنـ مـاـ أـهـمـيـةـ التـسـمـيـةـ؟ـ هـذـهـ الـحـلـقـةـ الشـرـيرـةـ لـاـ يـمـكـنـ كـسـرـهـاـ إـلـاـ بـنـقـضـ ذـلـكـ الـحـكـمـ الـفـقـهـيـ الـجـائـرـ وـمـحـوـهـ مـنـ كـتـبـ الـفـقـهـ إـلـىـ الـأـبـدـ، وـهـوـ مـاـ أـرـجـوـهـ مـنـ عـلـمـاءـ الـوقـتـ وـمـجـتـهـيـهـ الـكـبـارـ.

إن الشعب السوري الذي ثار على طاغية العصر من حقه أن يعيش حـراـ وأن لا ينتقل من متغلبـ إلىـ آخرـ، فلا مزيد من حـكـمـ الـعـسـكـرـ؛ـ لـاـ حـكـمـ عـسـكـرـيـاـ بـعـدـ الـيـومـ،ـ لـاـ لـتـسـلـطـ الـقـوـةـ وـأـهـلـ السـلاحـ عـلـىـ جـمـهـورـ الـأـمـةـ،ـ وـنـعـمـ لـمـنـهـجـ الـرـاشـدـيـ الـذـيـ منـحـ أـفـرـادـ الـأـمـةـ الـحـقـ فيـ التـصـوـيـتـ وـالـاختـيـارـ،ـ نـعـمـ لـحـرـيـةـ الـشـعـبـ السـوـرـيـ (ـوـسـائـرـ الـشـعـوبـ الـمـسـلـمـةـ)ـ وـلـإـرـادـتـهـاـ الـحـرـةـ،ـ وـلـحـقـهاـ فيـ الـخـيـارـ حـكـامـهاـ وـالـمـشـارـكـةـ بـالـرأـيـ وـالـقـرـارـ.

الزلزال السوري

المصادر: